



رسائل الثورة السورية المباركة (89): هل بدأ التطهير العرقي في سوريا؟

الجواب: نعم، التطهير العرقي بدأ منذ عدة أسابيع، وهو ما يزال في مراحل مبكرة حتى الآن، لكنه يمكن أن يزداد ضراوة وانتشاراً مع ازدياد الضغط الداخلي على النظام وتسارع التهديدات الخارجية بضرره، فإن ذلك يزيد إغرافاً في سياسة التثوير الطائفي التي تجد صدى وقبولاً واسعاً في أوساط الطائفة العلوية. ليست هذه المقالة للشحن الطائفي الذي يضر ولا يفيد والذي تقاومه الثورة بذكاء واقتدار، وإنما هي للتحذير من خطر جسيم يحتاج إلى كثير من الانتباه وإلى عمل سريع وحاسم قبل فوات الأوان.

-1-

نستطيع حالياً تمييز ملامح بدائية لحملة تطهير عرقي في مدينة حمص وفي بعض قرى اللاذقية؛ فأما حمص فقد بدأت حملة طائفية شرسة على بعض أحياها السنّية بعد سقوط بابا عمرو مباشرة: كرم الزيتون والنازحين والرفاعي والعدوية والمريجة وجبل الجندلي وباب السبع وباب تدمر وباب الدرب. الحملة تأتي من الأحياء العلوية المجاورة: حي الزهراء من الشمال والنزة وعكرمة من الغرب والجنوب، وهي تشمل كل أدوات وأساليب التطهير العرقي القذرة المعروفة، من اقتحام المنازل وقتل للمدنيين بالسلاح الأبيض، مع التعذيب والاغتصاب والتمثيل بالموتى، إلى القصف العشوائي بالصواريخ ومدفع الهاون ومدافع الدبابات.

وقد وصفت الأخبار قصفَ الهالون على باب السبع بأنه مثل المطر، أما باب الدرب فاستقبل أكثر من ثلاثة آلاف قذيفة في أقل من أسبوع، وفي الحيّين تهدمت بيوت كثيرة أو اشتعلت فيها النيران. (بدأت بكتابه هذه المقالة منذ يومين، والآن وأنا أراجعها المراجعة النهائية وردت الأخبار المؤلمة عن مجازر جديدة في حي الرفاعي، وعن سقوط حي العدوية وحي المريجة واقتحامهما من قبل العصابات الطائفية، حسبنا الله ونعم الوكيل).

أما اللاذقية فإن الأخبار تتواتر منها منذ أسبوع متعددٌ عن هجمات ببربرية تشنها مليشيات طائفية من القرى العلوية على القرى السنّية المجاورة، وقد بلغت درجة التطهير العرقي الكامل في قريتين على الأقل حتى الآن.

إن منطقة الساحل منطقة مختلطة حالياً، حيث يشكل السنة أكثرية في مدينة اللاذقية وجبلة تقترب من الثلثين في اللاذقية وتزيد قليلاً في جبلة، وهم أربعة أخماس سكان بانياس، أما مدينة طرطوس فيبلغون فيها النصف أو أقل بقليل. القرى المحيطة بجبلة وطرطوس تكاد تكون كلها علوية، وكذلك أكثر القرى المحيطة ببانياس، يتخللها عدد من القرى السنية كالمرقب والبيضا وبيت جناد والحميدية والبساتين. أما قرى اللاذقية فإنها مختلطة، بعضها علوية وبعضها سنية، ويتركز السنة بشكل خاص في قرى جبل الأكراد وقرى التركمان المحاذية للحدود التركية، كما يوجدون في عدد من قرى الساحل.

الهجمة الطائفية تتركز حالياً على القرى السنية في جبل الأكراد، الواقعة شرق طريق حلب اللاذقية القديم الذي يربط اللاذقية بحسر الشغور، ولا سيما في منطقة الحفة (قرب قلعة صلاح الدين)، حيث تعرضت قريتا بابنا والجنكل السنتان قبل أسبوع إلى هجوم طائفي شرس نتج عنه تهجير سكانهما بالكامل، وهم نحو اثنين عشر ألف نسمة. الهجوم الآثم شنته مليشيات علوية من القرى المجاورة، شريفا وتلة وبيت شاكوحى ووطى الرامي وبعمرين، بمساعدة ودعم من قوات أمنية نظامية، واستعمل فيه القصف العشوائي بالصواريخ وقذائف الهاون، مما تسبب في هدم عدد من المنازل وسقوط عدد من الضحايا قبل أن يتمكن الباقون من مغادرة القرىتين إلى القرى السنية القريبة. القرىتان حالياً فارغتان من السكان الأصليين ويقيم فيها سكان القرى العلوية المعتدية.

و قبل يومين تعرضت لهجوم مشابه قرى بكاس ودفيل والمشيرفة وشيرقاق، فحاصرتها مليشيات علوية من قرى القلعة والقمودية ورسيون والشروع، وقد بلغ من عنف الهجمات البربرية وهمجيتها أن أصوات استغاثات الأهالي كانت تسمع في القرى القريبة، ولم يُعرف مصير أهالي تلك القرى حتى الآن. وفي الوقت نفسه يمضي النظام المجرم في تزويد القرى العلوية بأسلحة متقدمة تضم صواريخ ومدافع وأسلحة خفيفة ومتعددة، ومن تلك القرى عين الشرقية وبيت ياشور وبيت برغل والزعينية، والقرى المحيطة بالقرداحة.

بل إن الهجمة الطائفية القذرة قد وصلت إلى مدينة اللاذقية نفسها، حيث اجتاح علوى الجبل قبل عدة أيام عدداً من أحياءها السنوية: الشيخ ضاهر والصلبة والعوينة والطابيبات، وأطلقوا النار العشوائي بكثافة، وسُجلت حالات اختطاف كثيرة للرجال والنساء على السواء، مع سقوط عدد كبير من الجرحى وبعض الشهداء.

-2-

قد يسأل سائل: ما هو التطهير العرقي؟ أليس ما يجري في حمص واللاذقية جزءاً من خطط القمع المنهجي التي يمارسها النظام منذ سنة للقضاء على ثورة الكرامة والحرية في سوريا؟ والجواب: لا، الأمر هنا مختلف. التطهير العرقي ليس احتلالاً بقعة من الأرض ولا قتل جماعة من البشر، إنه أسوأ من ذلك بكثير، فهو يهدف إلى تغيير التركيب السكاني (الديموغرافي) في منطقة جغرافية ما من خلال تغيير نسب الطوائف أو الأعراق المختلفة فيها.

التطهير العرقي (ethnic cleansing) -بحسب تعريف القانون الدولي- هو " فعل عمد تقوم به جماعة عرقية أو دينية في منطقة ما، مستخدمة العنف ووسائل التروع، لتفريغ تلك المنطقة من مجموعة عرقية أو دينية أخرى". وهو مصطلح مكمل لمصطلح الإبادة الجماعية (genocide) الذي يعني "القتل العمد والمنهجي الذي يهدف إلى إبادة جماعة عرقية أو دينية إبادة كلية أو جزئية، والذي تمارسه عادةً حكومات أو جماعات تدعمها حكومات".

غالباً يخلط الكتاب بين المصطلحين لأن القتل الجماعي ممارسة مشتركة بينهما، حيث يمكن تنفيذ التطهير العرقي بإحدى طرفيتين: الإفقاء والقتل المنهجي لعدد كبير من السكان، أو الاقتصار على ارتكاب مجازر مرّوة من شأنها أن تحمل السكان على هجر مساكنهم والانتقال إلى مناطق أخرى خوفاً من الفناء.

الأسلوب الأول طبق على نطاق واسع في رواندا عام 1994م، فخلال مئة يوم - وعلى مرأى وسمع من العالم الذي لم يحرك ساكناً - قتل الهوتو ثلاثة أربعين مليون نسمة من أقلية التوتسي، وقد حرصوا على قتل كل من تصل إليه أيديهم منهم بغض

النظر عن السن أو الجنس، وغالباً كان القتل بالسلاح الأبيض، وعندما انتهت المجازرة أخيراً كان التوتسى قد فقدوا ثلاثة من كل أربعة؛ كانوا أكثر من مليون إنسان في الخامس من نيسان عام 1994م، وفي الخامس عشر من تموز بقي منهم نحو ثلاثة ألف فقط.

الأسلوب الثاني استعملته العصابات الصهيونية المسلحة (الهاغانا والأرغون وشطرين) في فلسطين قبل إعلان ولادة الدولة العبرية، حيث لجأت إلى ارتكاب مجازر مروعة في بعض القرى الفلسطينية لبث الرعب ونشر الفزع بين الناس، مما حملهم على إخلاء القرى التي يقترب منها اليهود. من أشهر تلك المجازر مذبحة دير ياسين المعروفة التي ذهب ضحيتها مئتان وخمسون شهيداً من سكان القرية من الرجال والنساء والأطفال، (وهو أقل من عدد الشهداء الذين نفدهم في سوريا في ثلاثة أيام. ما أرحم اليهود مقارنة بالعصابة المحتلة التي تحكم سوريا!).

في البوسنة استعملت عصابات الصرب المجرمة الأسلوبين معاً، وكانت نتيجة التطهير العرقي الذي استمر ثلاث سنوات (1992-1995) أكثر من مئي ألف قتيل ونحو مليوني مهجّر أجبروا على ترك مناطق سكنهم الأصلية والانتقال إلى مناطق أخرى، وقد عاد منهم إلى منازلهم - بعد عشر سنوات من انتهاء الحرب - نحو مئة وأربعين ألفاً فقط.

-3-

أكثر ما يُقلق في مسألة "التطهير العرقي" أنها غالباً غير قابلة للتصحيح، بل إن القوى الدولية التي تتدخل لفض النزاعات العرقية ووقف التطهير العرقي تساهم - هي نفسها - في تكريس نتائجه الكارثية، ربما لتجنب نفسها أي التزامات أخلاقية مستقبلية، أو لأنها قوى منحازةً أصلاً وغير محايدة. ولو أنناقرأنا التاريخ فسوف نجد أن الأوضاع الميدانية تتثبت على حالها منذ لحظة انتهاء الحرب ووقف إطلاق النار، كما رأينا في فلسطين غداة صدور قرار التقسيم المشؤوم قديماً وكما حصل في البوسنة منذ عهد قريب.

في البوسنة كان جيب سريبرنيتسا (وهو يقع اليوم في أقصى شرق جمهورية صرب البوسنة)، كان مشكلة كامنة يصعب حلها لأنه كان منطقة صغيرة يسكنها البشناق المسلمين وسط بحر من الصرب الأرثوذكس، ولا شك أن الفصل بين الفريقين وتأمين الحماية الدائمة للمسلمين كانت مهمة عسيرة وطويلة. وهكذا توغلت قوات الأمم المتحدة - ممثلة بالكتيبة الهولندية المكلفة بحماية المسلمين - وغضّت النظر عن مذبحة استمرت أحد عشر يوماً بلياليها على مرأى منها وسمع، كانت نتيجتها قتل ثمانية آلاف وأربعين مسلماً من الرجال والشباب وتهجير الباقيين، وهو العجزة والناس والأطفال، وعدهم نحو ثلاثة ألفاً. ولم تكتف قوات الحماية الدولية (الهولندية) بالامتناع عن الدفاع عن المسلمين الذين تعرضوا للمذبحة، بل إنها توغلت مع المعذبين، فعندما التجأ إليها عدد من المسلمين قامت بتسلیمهم إلى الصرب الذين أعدموهم بدم بارد! بالنتيجة خلت المنطقة من المسلمين وصارت منطقة خاصة بالصرب، وتم تكريس هذا الواقع قانونياً بالاعتراف بجمهورية صرب البوسنة التي تشكل مع اتحاد البوسنة والهرسك (ومعهما كيان ثالث صغير اسمه مقاطعة بريتشكو) تشكل هذه الأقسام الثلاثة معاً فدرالية شكلية تسمى جمهورية البوسنة والهرسك، وهي كيان عجيب يضم ثلاثة أعرق وثلاثة أديان وثلاث لغات وله مجلس رئاسي ثلاثي، ويرأيي المتواضع فإنه قبلة موقوتة لا يؤمن انفجارها في حرب أهلية أخرى في المستقبل.

-4-

اعتماداً على التعريف القانوني للتطهير العرقي يمكننا القول بجزم وبلا تردد إن ما يجري في مدينة حمص منذ بداية آذار وما يجري في بعض قرى اللاذقية منذ أسبوع هو "تطهير عرقي" حقيقي، حتى وإن لم يعتمد على الإبادة الجماعية حسب تعريفها القانوني.

هل يسعى العلويون في حمص والساحل إلى تكريس واقع جديد تكون لهم فيه الغلبة السكانية؟ ربما، يجب أن نفك في هذا الأمر وأن نحمله على محمل الجد، وأن نتعامل معه بأسلوب وقائي لأن العلاج لن يكون سهلاً لو نفذ مخطط من هذا النوع لا

ربما تسبب الرد الحاسم على الحملة الطائفية الهمجية الأخيرة في إطلاق شارة الحرب الأهلية في سوريا. لقد كتب العقلاء وحدروا من الحرب الأهلية لأنها حرب فتاكه ضرّوس، وكانت واحداً من الذين بذلوا ما يستطيعون من جهد لتحذير الناس من مخاطرها، وما كتبته في هذا الموضوع كثير. على أن من الإنصاف الاعتراف بأن أهلنا العقلاء العظام في سوريا أثبتوا أنهم في غنى عنّي وعن أمثالى، فصبروا وصابروا وثابروا على إحباط كل محاولات النظام اليائسة لجرّ سوريا إلى حرب أهلية سيكون هو - على التحقيق. أكبر المنتفعين من آثارها.

لكن هل معنى هذا أن نسكن ونستكين ونتوقف عن الرد على حملة منهجمة هدفها إخلاء مناطق السنة من ساكنيها لتجنب الوقوع في الحرب الأهلية؟ لو فعلنا ذلك فسوف نقع في أسوأ مما نَحْذَرُ، لأن خسائر الحرب الأهلية - على أهوالها - أهون من خسائر تعرض مدننا وقرانا إلى تطهير عرقي تبقى آثاره الدهر الأطول. لقد كانت مدن حمص واللاذقية وجبلة وبانياس مدنًا سنّية صرفة قبل نصف قرن، فانظروا إليها الآن كيف صارت بسبب سياسة التوزيع السكاني التي اعتمدتها حكم الأسد، ولو سكتّ عمّا يجري الآن فقد لا يجد أحفادكم لهم موطنٍ قدم فيها بعد نصف قرن آخر.

إن من الغفلة أن نتجاهل ما يحصل في هذه المناطق بحجة حسن النية وتجنب الطائفية والمحافظة على الوحدة الوطنية؛ إن الحرص على الوحدة الوطنية أولى به أن يدفعنا إلى اليقظة وإلى اتخاذ التدبير الأنسب قبل الواقع في الفخ الذي يكاد لا يخرج منه من وقع فيه.

-5-

التوصيات والنداءات:

(1) **الوصية الأولى والنداء الأول لشعبنا المصابر الذي يتعرض لتلك الحملة الاتّمة: اصبروا واثبتو يا أيها الأبطال ما استطعتم الصبر والثبات،** (أقول: ما استطعتم، أما إذا استحِلت الأعراض فلا أظنكم تستطيعون، ولو كنت مكانكم لما استطعتم).

إن الهدف من المجازر هو دفعكم إلى ترك مدنكم وأحيائكم ليسكنها آخرون من طائفة أخرى، وقد لا تسترجعونها إلى الأبد لو تم ذلك - لا سمح الله -. أعلم أنكم تعانون معاناة فظيعة وأن الكلام سهلٌ قوله على شخص آمن بعيد مثلي، ولكنني أعلم أيضاً - مما قرأتُه عن حالات مشابهة في بلدان أخرى - أن الطائفيين لا يكتفون بتهجير الآمنين وتروعهم، بل إنهم يتغبونهم بالقتل حيّثما ارتحلوا، فإن لم يكن من الموت بد فليكن موتاً كريماً ولنمّت مُقبلين غير مدربين.

(2) **النداء الثاني لإخواننا الكرام في إعلام وصفحات الثورة:** لا تساعدوا عدونا علينا. إنكم تنشرون أخبار المذايحة وصورها فتشنرون معها الرعب في قلوب الناس، فمن لم تهجره العصابات الطائفية من بيته هجره منه الرعب، فاقتضدوا في نشر تفاصيل المجازر والمذايحة وصورها المروعة -يرحمكم الله-. أعلم أنكم في موقف حرج وأنكم مضطرون إلى إجراء موازنة دقيقة بين ما يجب نشره لإثبات الجريمة على المجرم ولحرز المتخاذلين ودفعهم إلى النصرة، وبين ما يجب إخفاؤه لكيلا تصيبوا الناس بالهلع، فادرسوا كل حالة في وقتها وأحسنوا الموازنة واستخروا الله وتوكلوا عليه، وقدموا دائماً التشجيع والتثبيت ورفع المعنويات على ما عداها.

(3) **النداء الثالث لقيادة الثورة السياسية ممثلة بالمجلس الوطني: هذا واحد من أهم أعمالكم وهو من أوجب الواجبات.** عليكم أن تناقشوا هذه الجرائم في اجتماعاتكم مع المسؤولين الغربيين ومع ممثلي المنظمات والهيئات الدولية وأن تضغطوا ضغطاً شديداً لوقفها وتجريم مرتكبيها، وأقترح أن تُنشئوا خلية أزمة متفرغةً لمتابعة الأحداث التي ينطبق عليها تعريف التطهير العرقي، وتبقى تلك الخلية على اتصال دائم بالهيئات والمنظمات الحقوقية الدولية، الرسمية وغير الرسمية، لموافاتها بالتطورات الميدانية أولاً بأول وحثّها على التحرك الفوري والحادي والضغط على الدول والحكومات لوقف تلك الممارسات

(4) النداء الرابع هو الأهم من بين الجميع، وأوجهه إلى قيادة الجيش الحر وإلى القيادات العسكرية الميدانية في حمص وإدلب: عليكم بالرد الحاسم والسرعى لوقف المجازر ووقف أعمال التطهير العرقي. لا بد من التحرك الفوري لتعزيز القوات المدافعة عن المناطق الأشد خطورة، وهي المناطق المجاورة للتجمعات السكانية العلوية في مدينة ومحافظة حمص وفي محافظة اللاذقية، ولا سيما في منطقة الحفة (حالياً على الأقل). بما أن الجيش الحر ليس له وجود في الحفة فأفترض التحرك العاجل لنقل بعض الوحدات المقاتلة إليها من إدلب المجاورة، وبما أن الكتلة السكانية السنّية هناك قد لا تكفي لتشكيل حاضنة بشرية لتلك الوحدات فربما وسعها أن تستفيد من طبيعة المنطقة الجبلية التي تشبه - إلى حد ما - طبيعة المناطق الوعرة التي اعتاد مقاتلو الجيش الحر عليها في جبل الزاوية القريب وفي منطقة اللجاة في حوران.

إن من واجب الجيش الحر ومن حقه أن يهاجم القرى التي تهاجم قرانا وأن يهاجم الأحياء التي تهاجم أحياءنا، فيصفها بمدافع الهالون والمورتر والقذائف الصارخية المتاحة؛ هذا هو الأسلوب الوحيد لردع المعتدين ووقف العدوان.

أكرر حتى لا يفهمني أحد خطأ وحتى لا يُنقل عني ما لم أقله: من حقنا أن نرد على العدوان بمثله فنهاجم القرى التي تهاجم قرانا والأحياء التي تهاجم أحياءنا، فقط، ولا يجوز أن نهاجم عشوائياً أي قرية علوية طالما لم تهاجمنا، ولا يجوز أن نصف عشوائياً أي حي علوى طالما لم يصفنا، فنحن لا نحارب العلوبيين ولا نحارب غير العلوبيين، إنما نحارب النظام المجرم الذي يحتل سوريا ونحارب من يقف معه، ونحارب من يحاربنا ويصفنا ويحتاج مناطقنا، كائناً من يكون ومن أى طائفة يكون.

نعم، من واجب الجيش الحر ومن حقه أن يهاجم القرى التي تهاجم قرانا وأن يهاجم الأحياء التي تهاجم أحياءنا. وأعلم أن في تلك القرى والأحياء من لم يشارك بالقتال ومن لا يحِل دمه، ولو أنهم حاربوانا واحداً لواحد لما حل تجاوز المعتدي إلى غيره، ولقد كتبت -منذ أيام- إلى إخوان كرام نشروا فتوى بجواز قتل أطفال من يقتل أطفالنا، فقلت إن ذلك لا يجوز لأن العقوبة لا تتجاوز القاتل إلى غيره، والطفل بريء لا يؤاخذ ولو كان ابن شبيح مجرم قاتل، ونقلت في هذا المعنى كلاماً للفرطبي في تفسيره أعيد إثباته هنا للأهمية، قال: "من ظلمك فخذ حقك منه بقدر مظلمتك، لا تتعذر إلى أبويه ولا إلى ابنه أو قريبه" (الجامع 2/360). وعقب أخ كريم مؤيداً فنقل إجماع العلماء على تحريم قتل المجاهدين لنساء وصبيان المحاربين ما لم يقاتلوا، قال: "حکى هذا الإجماع ابن حزم في مراتب الإجماع (ص201)، والنوي في شرح صحيح مسلم (12/48)، وابن حجر في فتح الباري (6/147)، وغيرهم".

الحكم السابق صحيح ما دام القتال فردياً، واحداً لواحد، أما إذا كان قتالاً عاماً تُوصف فيه أحياؤنا من أحيائهم أو تشنَّ فيه الهجوم على قرانا الجماعاتُ المعتدية من قراهم فلا يبقى لنا خيار إلا الرد رداً عاماً، وللإمام رشيد رضا كلام واضح مُحكَم في هذا؛ قال في تفسير قوله - تعالى - : {فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم}؛ "القصد أن يكون الجزاء على قدر الاعتداء بلا حيف ولا ظلم، كقتل المجرمين بلا ضعف ولا تقصير - قلت: هذه الجملة تنطبق على الشبيحة حالياً، وأزيد على هذا ما هو أولى بالمقام وهو المماثلة في قتال الأعداء، فالقاتل بالمدافع والقذائف النارية أو الغازية السامة يجب أن يُقاتل بها، وإنْ فاتت الحكمة لشرعية القتال، وهي منعُ الظلم والعداون والفتنة والاضطهاد، وتقريرُ الحرية والأمان والعدل والإحسان" (المنار 2/213).

(5) النداء الأخير أوجهه إلى الأمة الإسلامية: لقد حملت إخواننا المسلمين في كل مكان جزءاً من المسؤولية والعبء فيما مضى، واليوم أحملهم المسؤولية والعبء ضعفين أو أضعافاً مضاعفة. إخوانكم في سوريا يذبحون ذبح الدجاج والنعاج وتهدم بيوتهم فوق رؤوسهم؛ قد انقطع رجائهم من كل أحد إلا من الله ثم منكم، وأيسوا من كل مُعين إلا من الله ثم منكم، وإنهم ليس لهم - بعد الله - غيركم، فإذا تمدُّوهم بالمال اللازم للحياة والمال اللازم لشراء السلاح لا تبقى لهم باقية.

أيها المسلمين:

أهل السنة في سوريا أمانة في أعناقكم، فلا تخذلوهم ولا تُسلّموهم إلى عدوهم فتندموا يوم لا ينفع الندم. نعم، إنهم أمانة في أعناقكم، ولسوف يسألكم الله عن الأمانة يوم الحساب، فأعدوا لذلك اليوم -منذ اليوم- الجواب.

المصدر: الزلزال السوري

المصادر: